The ethical questioning of relationship of the self to the truth by Michel Foucault

Dr. Ghassan Alaa Aldeen*
Dr. Mala Barhom**
Ghiath khile***

(Received 25 / 7 / 2019. Accepted 25 / 11 / 2019)

□ ABSTRACT □

The French philosopher Michel Foucault's vision of the relationship between the self and the truth is divided into two positions, one of which can be described as negative while the other positive. These positions represent two successive stages of his philosophical life. Critics and many explicator of his philosophy have often viewed them as contradictory approaches.

This research represents an attempt to find out the nature of these two positions through an analytical study of some of the Foucault's spoken in order to establish a link between them depending on the idea that the first position represents the destructive side or the critical aspect of the relationship of the self to the truth. Whereas, the second position represents the constructive aspect towards this relationship in line with the philosophical idea which view that any construction process must be preceded by a process of criticism and displacement -provided that we understand the displacement as a re-questioning of the consistent and assumptive and confiscations that turned under the weight of the sanctification to imagery- on the one hand, and on the other hand explanation the nature of existing relationship between the epistemic and the ethics as two elements contribute in stabilization of self to attainment the truth.

Keywords: Epistemic, Ethical, Self, Truth.

* **Assistant professor-Department of philosophy-Faculty of Arts and Humanities-Lattakia-Syria**
** **professor-Department of philosophy-Faculty of Arts and Humanities-Lattakia-Syria**
*** **PhD student, Department of philosophy-Faculty of Arts and Humanities-Lattakia-Syria**
E. mail: Ghiathkahile64@gmail.com

المساءلة الإتيكية لعلاقة الذات بالحقيقة
عند ميشيل فوكو

د. غسان علاء الدين*

د. مالا برهوم **

غياث كحيلة ***

(تاريخ الإيداع 25 / 7 / 2019. قبل للنشر في 25 / 11 / 2019)

□ ملخّص □

تتوزع رؤية الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو لموضوعة العلاقة بين الذات والحقيقة على موقفين، يمكن وصف الأول بالسلبي بينما الآخر إيجابي، هذان الموقفان يمثلان مرحلتين متتاليتين من حياته الفلسفية غالباً ما نظر إليهما النقاد والعديد من شراح فلسفته على أنهما تعكسان مقاربتين تناقض إحداهما الأخرى.

يمثل هذا البحث محاولة للوقوف على طبيعة هذين الموقفين عبر دراسة تحليلية استقصائية لبعض المنطوقات الفوكوية بغرض إيجاد رابط بينهما انطلاقاً من أن الموقف الأول يمثل الجانب الهدام أو لنقل الجانب النقدي من علاقة الذات بالحقيقة في حين أن الموقف الثاني يمثل الجانب البنّاء إزاء هذه العلاقة تماشياً مع الفكرة الفلسفية التي ترى أن أية عملية بناء لا بد أن تسبقها عملية نقد وإزاحة –شريطة أن نفهم الإزاحة على أنها إعادة مساءلة الثوابت والبداهات والمصادرات التي تحولت تحت وطأة التقديس إلى أصنام وأقانيم – هذا من جانب، ومن جانب آخر محاولة تبيان طبيعة العلاقة الكائنة ما بين المعرفي والإتيكي كعنصرين يسهمان في تمكين الذات من بلوغ الحقيقة.

الكلمات المفتاحية: أبستيمي، إتيكي، ذات، حقيقة.

* أستاذ مساعد–قسم الفلسفة–كلية الآداب والعلوم الإنسانية–جامعة تشرين–اللاذقية–سورية.

** مدرسة-قسم الفلسفة-كلية الآداب والعلوم الإنسانية-جامعة تشرين-اللاذقية-سورية.

*** طالب دراسات عليا (دكتوراه)–قسم الفلسفة– كلية الآداب والعلوم الإنسانية–جامعة تشرين–اللاذقية–سورية.

E. mail: Ghiathkahile64@gmail.com

مقدمة:

ككل موضوعة فلسفية، تطرح موضوعة العلاقة بين الذات والحقيقة سؤالاً إشكالياً كان ولا يزال حتى يومنا هذا محط اهتمام العديد من الفلاسفة والباحثين.

فإذا كان السؤال الذي طرحته الفلسفات الغربية الميتافيزيقية (ما الذات، وما الحقيقة؟) بطبيعته سؤالاً ماهوياً، وإذا كانت الإجابة عنه تحيل إلى جوهر قار لا يمكن بلوغه أو الكشف عنه إلا من خلال المعرفة فقط، فالثابت أن سؤال العلاقة بين الذات والحقيقة لدى الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو انفرد بخصوصية وسمت بطابعها مجمل نتاجه الفلسفي، بحيث يمكن الادعاء بأن جلّ أبحاثه الفلسفية لم تكن سوى انعكاساً لمحاولته إيجاد ترسيمة تؤسس لعلاقة الذات بالحقيقة انطلاقاً من إعادة موضعة العلاقة الكائنة ما بين الأبستيمي والإتيكي(*). ولَعل هذا ما أكسب الفلسفة الغربية المعاصرة بعداً جديداً يمكن تلمس معالمه بجلاء في تعريف فوكو لها بأنها "شكل الفكر الذي يتساءل عما يسمح للذات بأن تبلغ الحقيقة، وفي أن تملك القدرة على معرفة الحقيقة؛ إنها شكل الفكر الذي يحاول أن يحدد الشروط والحدود التي تصل بها الذات إلى الحقيقة" [1]. معيداً بذلك رسم وتشكيل خارطة الفكر الفلسفي في الساحة الغربية.

إن ذهناً مدققاً وممحصاً، كذهن فوكو ما كان ليطرح التساؤل الماهوي (ما الذات، وما الحقيقة؟)، لأنه لا يدخل في قلب انشغالاته وهمومه الفلسفية، بل استعاض عنه بالتساؤل (ماهي الكيفية التي تتبني بها الذات؟ وما هي السياسة المتبعة في إنتاج الحقيقة؟)، مضيفاً إليه سؤالاً آخراً لا يقل أهمية وراهنية عنه (ماذا ينبغي على الذات أن تفعل؟ وكيف لها أن تسلك كي تبلغ الحقيقة التي هي في نهاية المطاف حقيقتها؟) بحيث يمكن القول: إن هذين السؤالين لم ينفصلا قط عن بعضهما في معظم نتاج فوكو الفلسفي، بل ظلا حاضرين فيه بصورة متعالقة سواء بشكل مباشر أو غير مباشر.

أهمية البحث وأهدافه:

تتأتى أهمية البحث أولاً، من السعي إلى تقديم دراسة تستقصي موقف فوكو من مشكلة العلاقة بين الذات والحقيقة أبستيمياً وإتيكياً بغية الكشف عن الجديد الذي قدمه فوكو مقارنه بأسلافه ممن تعرضوا لهذه المشكلة بالدراسة والتحليل. وثانياً من الكشف عن الآليات والاستراتيجيات التي استحدثها فوكو واستخدمها في إطار دراسته لموضوعة العلاقة بين الذات والحقيقة، والتي كان من شأنها أن فتحت له آفاقاً رحبة أوصلته على مستوى الفكر إلى أرض بكر لم تطأها قدم من قبل.

*** الأبستيمي: يعني بشكل عام المعرفي، ولكنه يُحيل عند ميشيل فوكو أيضاً إلى ما يسمى بالبنية الفكرية أو النسق المعرفي الذي تفرضه القوى المنتصرة على القوى المهزومة في إطار مجتمع ما أو فترة تاريخية بعينها، ويُعدّ بمثابة شروط إمكان قبلية لنشأة المعارف والعلوم والذوات.**

الإتيكي: يشير إلى الأخلاق، لكن ليس بالمعنى المتعارف عليه، أي ليس الأخلاق بوصفها مجموعة من الأوامر والضوابط والنواهي المفروضة على الأفراد من خارج ذواتهم، وإنما بوصفها مجموعة من الأنشطة والسلوكيات التي يمارسها الأفراد تجاه ذواتهم من الداخل، أي بشكل ذاتي بغية الاهتمام والإنشغال بها، وذلك بمعزل عن إملاءات الخارج وأوامره ونواهيه.

[1] فوكو، ميشيل، تأويل الذات، دروس أُلقيت في الكوليج دو فرانس لسنة 1981-1982، ترجمة وتقديم وتعليق الزواوي بغورة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2011، ص 24.

ويهدف هذا البحث لتحديد ما إذا كان غرض فوكو من دراسته لعلاقة الذات بالحقيقة انطلاقاً من المطلب الإتيكي يهدف إلى استبعاد المطلب المعرفي من حقل التفكير الفلسفي، أم يهدف إلى إيجاد علاقة بين هذين المطلبين، وتبيان طبيعة هذه العلاقة إن وجدت من حيث هي علاقة استبعاد وإقصاء أم تبعية أم علاقة تداخل وتكامل.

مناهج البحث:

درج الباحثون على تقسيم فلسفة فوكو إلى مرحلتين؛ الأولى تشغل ستينيات القرن المنصرم، وفيها تعرض لقضية العلاقة بين الذات والحقيقة من منظور أبستيمي.

أما المرحلة الثانية من فلسفة فوكو فإنها تشغل سبعينيات القرن المذكور وتمتد إلى بداية الثمانينيات وتحديداً إلى سنة وفاته عام 1984، وتجسد هذه المرحلة موقفه الإتيكي إزاء علاقة الذات بالحقيقة.

وإذا كان فوكو يروم دراسة العلاقة بين الذات والحقيقة انطلاقاً من المبدأ الإتيكي الذي أقصته الفلسفات الميتافيزيقية – حين حصرت هذه الأخيرة عملية بلوغ الذات للحقيقة بالمعرفة البدهية فقط، متجاهلة ما ينبغي أن تقوم به الذات من أفعال إزاء ذاتها حتى تطال الحقيقة– لكن هذا لا يعني أننا في دراستنا هذه سنهمل علاقة الذات بالحقيقة أبستيمياً، ونولي العناية لهذه العلاقة من الناحية الإتيكية فقط، بل ستكون كلتا المرحلتين مدار بحثنا. وتماشياً مع ذلك لجأنا إلى استخدام منهج التحليل النقدي لإنجاز هذا العمل.

أولاً– تفكيك العلاقة الأبستيمية بين الذات والحقيقة:

ليس ثمة عبارة فلسفية قد أثارت لغطاً في تاريخ الفلسفة بقدر ما أثارته تلك العبارة المنقوشة على مدخل معبد دلفي (أيها الإنسان إعرف نفسك)، والعائدة للفيلسوف اليوناني سقراط*، لدرجة يمكن القول معها، إنها غيرت مجرى التاريخ الفلسفي برمته، طبعاً دون أن يعني ذلك رد اللغط إلى سقراط نفسه، بل يمكن إحالته إلى ما اصطلح عليه فوكو اسم "اللحظة الديكارتية" دون أن يعني بذلك ديكارت* على وجه الحصر[1]، –بيد أن فلسفته، أعني فلسفة ديكارت جسدتها أفضل تجسيد– فاللحظة الديكارتية على حدّ تعبير فوكو بدأت منذ اليوم الذي أخذ فيه مفكروا الغرب يهتفون ويتشدقون بالقول "إن مايؤدي إلى بلوغ الحقيقة، وأن الشرط الذي يمكن به للذات أن تبلغ الحقيقة، هي المعرفة، والمعرفة فقط"[2].

لقد أراد مفكرو اللحظة الديكارتية لا سيما المحدثون منهم، وعلى رأسهم ديكارت تجاوز ما يسمى بفكر العصور الوسطى الذي حصر ممارسة الفلسفة بالكنيسة ورجالاتها ممن استقدموا الفلسفات اليونانية القديمة وقاموا بدراستها والإطلاع عليها لا لإيمانهم بأهميتها وما يمكن أن تؤديه من دور فاعل في تنوير العقل الإنساني آنذاك، بقدر ما كانت محاولة منهم لاستخدامها كسلاح عقلي للدفاع عن الدين ضد منتقديه وأعدائه أولاً، ولتدعيم معتقداتهم الدينية وإضفاء طابع المعقولية عليها ثانياً.

وإذا كان ديكارت قد لقب بأبو الفلسفة الحديثة لا لسبب آخر سوى لأن فلسفته شكلت علامة فارقة أنهت فكر القرون الوسطى معلنة بالوقت ذاته ميلاد الفكر الحداثي الذي سعى بشكل محموم لإعادة الإعتبار للعقل الفلسفي اليوناني. وإذا

*** فيلسوف يوناني (470–399) ق.م، عاش جلّ حياته في أثينا، اهتم بالمسائل الأخلاقية، لم يضع أي كتاب، وكل ما نعرفه عنه مصدره كتابات ومحاورات تلميذه أفلاطون، اتهم بأنه يفسد عقول الناشئة، حكم عليه بالموت عن طريق تجرع السم.**

*** فيلسوف فرنسي (1596–1650)م، ولد بمدينة لاهاي بإقليم التورين بفرنسا، لقب بأبو الفلسفة الحديثة، وضع العديد من المؤلفات منها، مقال في المنهج، تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى، العالم أو كتاب النور.**

(1) فوكو، ميشيل، تأويل الذات، مصدر سابق، ص23.

(2) فوكو، ميشيل، تأويل الذات، مصدر سابق ، ص26.

كان رجالات الدين وآباء الكنيسة في العصور الوسطى قد أرجعوا الحقيقة إلى السماء وربطوها بإله مفارق بعد أن هوى بها سقراط إلى الأرض مؤكداً أنها لم تبرح الإنسان، فالثابت أن ديكارت أحدث ثورة على الفكر القروسطي حاول من خلالها إعادة الفلسفة إلى مسارها العقلي، وتحرير الحقيقة من الوصاية اللاهوتية الكنسية عبر إحياء العبارة السقراطية حول (معرفة الإنسان لنفسه)، ولكن في حدود طرح وتأويل جديد تناسى من خلاله الإطار العام، أو لنقل الأرضية التي استند إليها سقراط عند طرحه لهذه العبارة، الأمر الذي نجم عنه تبعات أرخت بظلالها الثقيلة على مجمل التاريخ الفلسفي، كان من أبرزها استبعاد المطلب الإتيكي من حقل التفكير الفلسفي.

وقد تجسد التأويل الديكارتي للعبارة السقراطية حول معرفة الإنسان لنفسه من خلال القول، إن ما يسمح للذات بلوغ الحقيقة هو المعرفة فقط دون الحاجة إلى سند آخر ما خلا بعض الشروط المرتبطة ببنية المعرفة، دون أن تمس بنية الذات العارفة نفسها كالبداهة ونفي الجنون عن الذات العارفة [1]، اللذان حددهما ديكارت في كتابه التأملات.

لا ريب أن ديكارت قد لجأ من أجل الوصول إلى الحقيقة إلى استخدام منهج الشك، حيث شك في كل ما تعلمه عن طريق الحواس والعقل وانتهى بعد رحلة مضنية من الشك إلى حقيقة واضحة وبديهية لايمكن الشك فيها وهي وجوده كذات مفكرة، وقد عبّر عن ذلك بما يعرف بالكوجيتو الديكارتي (أنا أفكر إذن أنا موجود). وهو بذلك حدد مبدأ البداهة كشرط رئيس لمعرفة الذات، لكن هذه المعرفة البدهية لم تحدد بداية لوجوده كذات[2]، فكان من جراء ذلك أن تحولت الذات إلى جوهر ميتافيزيقي، حامل للحقيقة المطلقة، لا بل غدت الذات الحقيقة الأولى، والمعيار الأوحد للكشف عن حقائق الأشياء، فكل ما يظهر ويتبدى للذات بوصفه أمر بدهي مباشر فهو (حقيقة) محال أن تقبل الشك.

هكذا يكون ديكارت بإقراره للذات كمبدأ وأساس لكل ما هو موجود، وللوعي الذاتي كحكم وحيد على الحقيقة، قد ساهم في نشأة المدلول الحديث للذات الإنسانية المالكة لزمام أمرها؛ الذات الشفافة التي تسعى إلى فض كل الأسرار، وإلى بسط هيمنتها على كل شيء [3]. وليس هذا في عرف فوكو سوى سقوط صارخ في أحضان الميتافيزيقا.

لكن فوكو كعادته في رفض البديهي والمتفق عليه، وخلافاً لفلاسفة اللحظة الديكارتية حاول أن يوضح في المرحلة الأبستيمية من مسيرته الفلسفية أن الحقيقة ليست جوهراً قائماً بذاته يتعين اكتشافه أو جعل الآخرين يتقبلونه، بل هي من هذا العالم، وهي تتشكل وتتبني فيه وفق شروط تاريخية ثقافية تختلف من عصر إلى آخر، وأن الإنسان بوصفه ذاتاً عارفةً ليس باستطاعته بلوغ الحقيقة من خلال فعل معرفي بسيط وبدهي[4] كما ظن ديكارت، ثم أن الإنسان بوصفه ذاتاً عاقلة لم يكن ليمتلك القدرة على الفعل وإنتاج العلوم والمعارف حتى يتسنى لنا القول بقدرته على بلوغ الحقيقة عبر أفعاله المعرفية. ألم يكشف لنا فوكو في أركيولوجياه بأن ما يسمى بالذات العارفة هي اختراع حديث وأن ساعة أفولها قد أزفت، وأنها في أحسن الأحوال لم تكن أكثر من صدفة عابرة ضمن نسق أبستيمي محدد.

(1) المصدر سابق، ص26-27.

(2) المصدر السابق، ص23.

(3) الدواي، عبد الرزاق، موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر، (هيدجر، ليفي ستروس، ميشيل فوكو)، دار الطليعة، بيروت، 2000، ص57.

(4) فوكو، ميشيل، تأويل الذات، مصدر سابق، ص24.

هناك إذن، نسقاً أبستيمياً، وإن شئت قل فضاءً ثقافياً، هو الذي يتحكم بعملية إنتاج الذات وتشكلها* ، وبمجمل ما تقوم به من أنشطة وممارسات، وهو المسؤول عن عملية إنتاج المعارف والعلوم. وبهذا المعنى يقول فوكو: "إن الطريقة التي يفكر بها الناس ويكتبون ويحكمون ويتكلمون حتى النقاشات في الشارع والكتابات اليومية، حتى الطريقة التي يستشعر بها الناس الأشياء، والكيفية التي تثار بها حساسيتهم، وكل سلوكهم، تحكمها في جميع الصور بنية نظرية، أو نسق" [1]. والسؤال المطروح هنا ما طبيعة هذا النسق؟ ومن هو المسؤول عن عملية إفرازه وإنتاجه؟ وما هي آلية عمله؟

في إحدى المحاورات التي أُجريت مع فوكو سُئل عما يعنيه بكلمة (نسق)، فأجاب قائلاً: "أعني بكلمة النسق مجموعة من العلاقات التي تثبت وتتغير في استقلال عن الأشياء التي ترتبط بينها" [2]. يتبين لنا من هذا التعريف أن مفهوم النسق عند فوكو يقترب إلى حدّ بعيد من مفهوم البناء أو البنية في الفلسفات البنيوية، ولعل هذا أحد أهم الأسباب التي دفعت بالعديد من المفكرين والنقاد إلى تصنيف فلسفة فوكو في خانة هذه الفلسفات، أعني الفلسفات البنيوية. ولجلاء معنى النسق لدى فوكو، سنحاول الوقوف ولو بعجالة على تعريف البنية عند شيخ البنيويين المعاصرين كلود ليفي شتراوس* ومقارنته بالنسق الفوكوي.

حدد شتراوس مفهوم البنية قائلاً "البنية تحمل –أولاً وقبل كل شيء– طابع النسق أو النظام. فالبنية تتألف من عناصر يكون من شأن أيّ تحولٍ يعرض للواحد منها، أن يُحدث تحولاً في باقي العناصرِ الأخرى" [3]. ولإيضاح هذا التعريف يسوق شتراوس المثال الآتي: "إن عالم الاجتماع الذي يواجه كثرة هائلة من الظواهر الاجتماعية من طقوس، وعقائد، وأساطير...إلخ، سرعان ما يتحقق من أن كل هذه الظواهر تعبر بلغة خاصة عن شيء مشترك بينهما جميعاً؛ وليس هنا الشيء المشترك على وجه التحديد سوى البنية، أي تلك العلاقات الثابتة القائمة بين حدود متنوعة تنوعاً لا حصر له" [4]. فمفهوم البنية حسب تعريف شتراوس يشير إلى أرضية ثابتة، أو لنقل إلى عناصر الثبات التي تكمن خلف تنوع الظواهر وتعددها، وما يؤيد ذلك هو قول شتراوس "أنا بنيوي منذ الولادة...أبحث عن الثوابت" [5]. وهنا يجب أن ننتبه

*** ما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام هو أنه حين نقول أن النسق الأبستيمي المتحكم بعملية إنتاج الأفراد أو الذوات ينبغي ألا تُفهم هذه العملية بالمعنى المادي والبيولوجي، بل بالمعنى الاجتماعي والثقافي. فالفرد إن صح التعبير يولد مرتين، الأولى حين يخرج من رحم أمه وهذا ما يمكن تسميته بالولادة البيولوجية، أما الثانية والتي يُعد النسق الأبستيمي هو المسؤول المباشر عنها فهي الولادة الاجتماعية والثقافية التي تبدأ مع بداية تلقيه ثقافة المجتمع أو العصر الذي ينشأ بين ظهرانيه و من ثم محاولته تمثلها والعمل وفقاً لها.**

(1) فوكو، ميشيل، هم الحقيقة "مختارات"، ترجمة مصطفى المنساوي، سلسلة بيت الحكمة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2006، ص10.

(2) المصدر السابق، ص 8.

*** كلود ليفي شتراوس عالم أنثروبولوجيا ولد في بلجيكا عام 1908، حصل علي إجازة الفلسفة عام 1932، ارتحل إلى البرازيل عام 1934 ما أتاح له رحلات دراسة ميدانية في أدغال البرازيل خلال توليه منصب أستاذ الأنثروبولوجيا بجامعة سان بولو، وهناك قام بدراسة عدد من القبائل البدائية، فكانت مهادًا لأفكاره التي تطورت فيما بعد، اهتم بدراسة الأساطير والشعائر وأبنية القرابة بنيويًا وله كتب منها :الأنثروبولوجيا البنيوية، مقالات في الإناسة، الفكر البري، الأسطورة والمعنى.**

(3) زكريا، ابراهيم، مشكلة البنية، مشكلات فلسفية "8"، دار مصر للطباعة، القاهرة، ط1، 1990، ص31.

(4) المرجع السابق، ص31–32.

(5) ليفي شتراوس، كلود، من قريب ومن بعيد "الدوائر الباردة"، حوارات مع ديدييه إريبون، ترجمة مازن م. حمدان، دار كنعان، دمشق، ط1، 2000، ص175.

إلى أن شتراوس عندما يتحدث عن النسق أو عناصر الثبات فهو لا يتحدث عن صورة مجانسة للواقع التجريبي، بل عن نموذج نظري، وبهذا المعنى يمكن القول إن البنية ليست كامنة في الموضوعات، بل ماثلة في صميم المطلب العقلي الذي يريد إدخال الكثرة التجريبية تحت نظام أو نسق [1] هذا يعني أن البنية أو عناصر الثبات التي تمثل حقيقة الظواهر لا نقع عليها في الواقع التجريبي، وإنما هي متحققة على مستوى العقل الإنساني.

وبناءً على هذا التحديد لمفهوم البنية أو النسق عند شتراوس والذي يكاد يطابق بشكل أو بآخر مفهوم النسق عند فوكو يمكن تعريف النسق الفوكوي بالقول: إنه عبارة عن نظام خفي، أو أرضية معرفية، تتحكم، أو لنقل تُشكل شروط إمكان قبلية لنشأة الظواهر والمعارف. مع ملاحظة وجود فارق أساسي بينهما يمكن توضيحه على النحو الآتي: إن مفهوم النسق حسب شتراوس ماثل في مجمل العقول البشرية دون استثناء، وهذا ما عبر عنه بالقول "إن للدماغ البشري الطبيعة نفسها في كل زمان ومكان" [2] أي أن للعقل البشري آلية عمل واحدة لا تتأثر باختلاف الزمان والمكان أو المجتمعات والعصور، وهذا يفيد بأن النسق لدى شتراوس يبقى ثابتاً موحداً لدى جميع المجتمعات وعلى مرّ العصور، في حين أن نسق فوكو يتغير مع تغيّر المجتمعات والعصور [3]، فلكل مجتمع أو عصر نسقه أو بنيته الخاصة به.

وعلى ما يرى فوكو مُخطئ من يظن أن النظام أو النسق الأبستيمي الخاص بمجتمع، أو عصر ما، من صنع الذات البشرية، لأنه موجود قبل كل وجود بشري [4]. لكن إذا كان الأمر على هذا النحو ألا يحق لنا التساؤل عن كيفية تشكّل وتكّون هذا النسق؟

إن المتابع لمؤلفات فوكو لا يكاد يعثر بين سطورها على إجابة شافية ووافية لهذا التساؤل، إذ أن جلّ الإجابات التي وقعنا عليها لا تثلج الصدر، لأن ما قاله بهذا الشأن لا يتعدى بضع كلمات من قبيل النسق مغفل الهوية، مبني للمجهول، لا فاعل له [5].

وفيما يخص آلية عمل النسق في أداء وظيفته المتمثلة بالتحكم بعملية إنتاج المعارف والحقائق، وتشكل الذوات نقول إن النسق الأبستيمي يعمل على صياغة مجموعة من الأنظمة والقوانيين التي تمثل شكلاً معيناً من الإكراهات ثم يعمد إلى فرضها على أفراد مجتمع أو عصر ما لتغدو بمثابة قواعد تمكنهم من التمييز بين ما يُعتبر صحيحاً حقيقياً وما يُعتبر خاطئً باطلاً، بين ما يُقال وما لايُقال، بين ما يُفعل وما لا يُفعل، بين ما يُكتب وما لا يُكتب، إذ ليس لدينا الحق أو الحرية في أن نقول أي شيء، ولايمكن لنا أن نتحدث عن كل شيء، فإنتاج الخطاب في كل مجتمع هو إنتاج مراقب ومنظم، ومعاد تدويره، من خلال عدة إجراءات، هدفها الحد من سلطته ومخاطره [6].

وعلى ذلك تكف الحقيقة عن أن تكون ذلك الجوهر القار الذي يتعين اكتشافه، لتتحول على حدّ تعبير فوكو إلى "مجموع القواعد التي يمكن بمقتضاها أن نفرز ما هو حقيقي عما هو خاطئ وننسب إلى الحقيقي سلطة ذات تأثيرات خاصة" [7]، أي تتحول الحقيقة إلى لعبة بين ما يتم إظهاره على أنه صحيح ومقبول، وبين ما يتم استبعاده على أنه

(1) زكريا، ابراهيم، مشكلة البنية، مرجع سابق، ص73.

(2) ليفي شتراوس، كلود، من قريب ومن بعيد (الدوائر الباردة)، مرجع سابق، 198.

(3) فوكو، ميشيل، هم الحقيقة "مختارات"، مصدر سابق، ص10.

(4) المصدر السابق، ص 8 .

(5) المصدر السابق، ص9-10.

(6) فوكو، ميشيل، نظام الخطاب، ترجمة محمد سبيلا، دار التنوير، 1971 ، ص4.

(7) المصدر السابق، ص71.

خاطئ ومرفوض، فليس الصحيح صحيحاً لأنه كذلك، بل لأن النسق الأبستيمي أو الفضاء الثقافي المسيطر يقتضي، لا بل قل يفرض ذلك، وينطبق الأمر على الخاطئ، لذلك يعتبر فوكو أن قول الصدق شيء، والتواجد في دائرة الصدق شيء آخر. فنيتشه* مثلاً لم يكن في دائرة الصدق –دائرة صدق الخطاب الفلسفي السائد في عصره– لأنه لم يقل ما قاله، ولم يفعل ما فعله إلا بشكل مخالف لقواعد النسق الأبستيمي في عصره. فما قاله وما فعله رفضه الفلاسفة في عصره، لا بل يمكن القول إنهم كانوا عاجزين عنه تماماً. ومما لا ريب فيه أن نيتشه كان على دراية بذلك عندما قال: أنا سابق لأواني؛ هناك أناس يولدون بعد الممات...سأكون متناقضاً مع نفسي إذا ما طمعت اليوم في وجود آذانٍ وأيادٍ لحقائقي؛ أن لايُستمع إليّ اليوم، وأن لا يكون هناك من يرغب في الأخذ عنّي فذلك ما يبدو لي لا أمراً مفهوماً فحسب، بل عين التصرف السليم [1].

أما بالنسبة لديكارت فقد فصل بشكل حاد بين العقل والجنون، حيث استبعد هذا الأخير من مجال الشك الذي يمارسه العقل وهو يشق سبيله نحو الحقيقة، لقد اقرّ ديكارت بأنه كذات مفكرة قد يحلم ويتوهم وقد تخطئ حواسه في الأشياء البعيدة، لكنه نفى بشكل قاطع أن يكون مجنوناً ولو للحظة، لكونه ذاتاً مفكرة [2]. وهو بذلك أعني ديكارت كان يجاري قواعد صدق الخطاب الفلسفي السائد في عصره، لكنه في حقيقة الأمر لم يقم سوى بصياغة خطأ ممنهج ومضبوط. ومن هنا كان نقد فوكو له ومحاولته دراسة الجنون انطلاقاً من لحظته الخاصة، بعيداً عن لغة العقل والطب النفسي أي قبل اعتقاله من طرف المعرفة، وذلك بغية الكشف عن حقيقته الثقافية والتاريخية.

وبالبناء على ما سبق يمكن الإدعاء بأن جميع أنواع المعارف، بل وحتى العلوم، فضلاً عن أشكال الحقائق ما هي إلا مفعولات لأنساق وبنى أبستيمية تمتلك من القوة والسلطة ما يمكنها أن تفرض نفسها في إطار عصر أو مجتمع ما، وهذا بدوره يبطل ما انتهت إليه الفلسفات الميتافيزيقية من أن الذات يمكن لها أن تلج عالم الحقيقة من خلال المعرفة التي تنتجها، لأن الذات في ظل هيمنة الأنساق لم تعد فاعلة، بل على العكس مستلبة ومنفعلة، فاقدة لنشاطها وعملها.وبعبارة أخرى إن الذات في خضوعها لسلطة الأنساق الأبستيمية تفقد قدرتها على إنتاج المعارف التي كان من الممكن أن تسمح لها بلوغ الحقيقة، لتغدو بذلك الأنساق والحقول الأبستيمية/السلطوية هي تحدد الأشكال والمجالات الممكنة للمعرفة[3] من خلال تحديد شروط وقواعد التمييز بين الصحيح والخاطئ.

إذاً، فليس بمستطاع الذات الإنسانية والحال هذا نطق ما تريد، بل تنطق ما يُملى عليها بوصفه حقيقةً، وتمتنع عن نطق ما يُحظّر عليها بوصفه باطلاً، وعلى ذلك فالذات لا تَنطُق بل تُنطَق، ولا تَكتُب بل تُكتَب، ولا تُنتِج بل تُنتَج، والحقيقة ليست مكافأةً أوتقديراً لها على معارفها [4]، بل هي تتمثل ما يُعتبر حقيقة سائدة من خلال إلتزامها بقواعد

*** فريدريك نيتشه Friedrich Nietzsche (1844–1900): وُلد نيتشه في "ريكن" بالقرب من مدينة لوتسن بمقاطعة "سكسونيا"، في عام 1864م التحق بجامعة بون ليدرس اللاهوت والفيلولوجيا، وفي عام 1865 م انتقل إلى جامعة ليبتسج حيث بدأ يميل إلى دراسة اللغويات منصرفاً بذلك عن دراسة اللاهوت. وبعد أن أنهى دراسته الجامعية عين أستاذاً لفقه اللغة في جامعة بازل. تميز انتاجه الفكري بالغنى والتنوع، من أهم مؤلفاته: مولد التّراجيديا، اعتبارات في غير أوانها، إنسان مفرط في إنسانيته، الفجر، العلم المرح، هكذا تكلم زرادشت، ما وراء الخير والشّر، أصل الأخلاق وفصلها، وكان كتابه هذا هو الإنسان آخر نتاجه الفكري.**

(1) نيتشه، فريدريك، هذا الإنسان، ترجمة مجاهد عبد المنعم، دار هلا للنشر والتوزيع، الجيزة، ط1، 2011، ص64.

(2) فوكو، ميشيل، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، ترجمة سعيد بن كراد، المركز الثقافي العربي، ط1، 2006، ص 68.

(3) فوكو، ميشيل، المراقبة والمعاقبة "ولادة السجن"، ترجمة علي مقلد، مراجعة وتقديم مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990، ص65.

(4) فوكو، ميشيل، تأويل الذات، مصدر سابق، ص25.

النسق الأبستيمي السائد في هذا العصر أو ذاك المجتمع، فلكل عصر أو مجتمع نظامه الخاص بالحقيقة؛ لكل عصر أو مجتمع الأدوات والآليات التي تمكنه من التمييز بين المعارف الصحيحة التي تمثل الحقيقة، والمعارف الخاطئة التي تمثل الباطل[1].

ثانياً- إتيكا العلاقة بين الذات والحقيقة:

إذا كان فوكو كما ألمعنا، سلفاً، قد تحدث في المرحلة الأبستيمية من مسيرته الفلسفية عن تعذر بلوغ الذات للحقيقة من خلال نشاطها المعرفي على اعتبار أن المعرفة التي تمارسها مُحددة ومضبوطة سلفاً بقواعد فُرضت عليها من الخارج، زاعماً وجود بُنى وأنساق أبستيمية/سلطوية تُملي على الأفراد مجموعة من القواعد التي يمكن من خلالها تميز الصحيح من الخاطئ، وكل ما ينبغي على هؤلاء الأفراد فعله هو الاسترشاد بهذه القواعد قولاً وممارسةً، وإذا كان قد حصر وظيفة الأفراد في تمثُّل هذه القواعد والخضوع لها، بحيث يوصف كل من يلتزم بها بالفرد العاقل والسوي وكل من يُعرض عنها بالأحمق والمريض، فإنه في المرحلة الثانية من مسيرته الفلسفية الموسومة بالإتيكية حاول إعادة رسم الملامح الأساسية لعلاقة الذات بالحقيقة من خلال الإجابة عن التساؤل الآتي: إذا كان بلوغ الحقيقة متعذراً عن طريق المعرفة للأسباب آنفة الذكر، فما السبيل إلى ذلك؟

صرح فوكو في إحدى المحاضرات التي ألقاها في الكوليج دو فرانس لسنة 1981-1982 بأن "الحقيقة لا تُعطى للذات إلا بثمن، تصبح فيه كينونة الذات نفسها موضع رهان ولعبة" [2]. يبدو جلياً من خلال هذا التصريح أنه لا يمكن للذات أن تطال الحقيقة بالمجان، بل عليها أن تدفع مقابلاً يتمثل بإجراء عمل معين على نفسها يجعلها قابلة لبلوغ الحقيقة [3]. والسؤال المطروح هنا ما هو العمل الذي ينبغي على الذات الانخراط به إزاء ذاتها كيما تكون مهيئة للوصول إلى الحقيقة؟

إن ما ينبغي على الذات القيام به هو التخلي عما أُريد لها أن تعتقد به، كالتخلي مثلاً عن اعتقادها بأن الثبات والهوية هما من أهم خصائصها، فإذا ما حصل وحققت ذلك سارعت إلى تجديد ذاتها وإعادة خلقها، لتغدو هذه العملية أعني التجديد وعملية الخلق السمة الأساس التي تلازمها، عندئذٍ فقط تدرك أن حقيقتها ليست ثابتة، بل هي في تغير وتبدل مستمرين، ولكن الخلي عن اعتقاد كهذا لن يكون متاحاً إلا من خلال ما يُعرف بـ "الإتيك" على ألا نفهم الإتيك بالمعنى الأخلاقي المتعارف عليه، بل بوصفه "التكوين الذاتي للذات" أو "ممارسة من الذات إلى الذات" [4] تدور حول موضوع أساسي، وهو الاهتمام أو لنقل الانهمام بالذات[5].

ولهذا فإن أول ما قام به فوكو في مؤلفاته المتأخرة لا سيما تلك التي تعكس فلسفته الإتيكية التمييز بين (الإيتيك *L'Ethique*) بوصفه ممارسة سلوكية يقوم بها الفرد تجاه ذاته من الداخل، وبين (الأخلاق *La Moral*) بالمعنى المتعارف عليه كمجموعة من الأوامر والضوابط والنواهي المفروضة على الذوات من الخارج. ومن هنا نفهم عودة فوكو إلى دراسة العصور القديمة وانهمامه بالحديث عن النهج السلوكي الذي كان يتبعه الأفراد آنذاك إزاء ذواتهم لإعادة

(1) فوكو، ميشيل: نظام الخطاب، مصدر سابق، ص70.

(2) فوكو، ميشيل، تأويل الذات، مصدر سابق، ص24.

(3) فوكو، ميشيل، هم الحقيقة، مصدر سابق، ص97.

(4) Foucault, Michel, *Dits et écrits*, (V: 4), 1954-1988, Editions Gallimard, 1994, p.709

(5) *Ibid, p. 713.*

خلقها وتجديدها عبر إبداع تقنيات أو أساليب ذاتية يتحكمون من خلالها في حياتهم الخاصة دون أي تدخلات أو إملاءات خارجية.

فمفهوم الإتيك أو الإهتمام بالذات بوصفه الآلية التي ينبغي على الأفراد اتباعها للتعامل مع ذواتهم بغية النفاذ إلى الحقيقة ليس بالأمر الجديد أو المستحدث في الفكر الفلسفي، بل هو مفهوم قديم يعود في نشأته إلى العصور القديمة، هذا ما أكده فوكو بقوله "العلاقة بين النفاذ إلى الحقيقة وعمل بناء الذات لنفسها علاقة أساسية في الفكر القديم"[1]. وقد ارتبطت البدايات الأولى لنشأة هذا المفهوم بالفكر اليوناني، وتحديداً فكر الحكيم اليوناني سقراط، ويبدو ذلك جلياً من خلال تحليل فوكو لمحاورة ألقبياد التي يظهر فيها سقراط بوصف صاحب وظيفة ومهمة كُلف بها من قِبل الآلهة، ألا وهي دفع وإثارة الآخرين على أن يهتموا بأنفسهم، وأن يعتنوا بها، وألا يهملوها [2] في حال رغبوا بلوغ الحقيقة. ومن هنا كان وصف فوكو له برجل الاهتمام بالذات، كونه كان يدعو مواطني أثينا إلى تقديم العناية بالنفس على أي اهتمام آخر قائلاً "أيا أفضل الناس، وأنت الأثيني...أتعنى بكيف تحوز أكبر ثروة ممكنة وبالشهرة وبألوان التكريم، بينما لاتعنى بالفكر ولا بالحقيقة وبالنفس...؟ ماذا يا صديقي العزيز، إنك أثيني...فلا تخجل إن اهتممت بنفسك" [3] هكذا كان الاهتمام بالنفس لدى سقراط هو اللحظة الأولى والمؤسسة لبلوغ الحقيقة.

نلاحظ من خلال ما سبق أن فوكو يحاول أن يقدم لنا فكر سقراط بأسلوب مختلف، وفهم مغاير لما اعتدنا الركون إليه. فمن االمعلوم لدى معظم دارسي تاريخ الفلسفة أن إحدى أهم تعاليم سقراط هي حث الناس على معرفة ذواتهم إذا ما أرادوا بلوغ الحقيقة وليس الاهتمام بها كما زعم فوكو، وخير دليل على ذلك هو العبارة السقراطية التي يقول فيها "أيها الإنسان اعرف نفسك". حقيقة أن فوكو كان على علم مسبق بهذا الأمر وقد عبر عنه بإحدى محاضراته مخاطباً الحضور: "ستقولون لي أنه لمن المفارقة بل ومن السفسطة، أن تختار هذا المفهوم أو التصور لدراسة العلاقة بين الذات والحقيقة. هذا المفهوم الخاص بالاهتمام بالنفس، الذي لم يهتم به كثيراً التأريخ الفلسفي...في الوقت الذي تشير فيه جميع الدلائل في تاريخ الفلسفة وبشكل عام في تاريخ الفكر الغربي إلى أن أعرف نفسك هي من دون شك الصيغة المؤسسة لمسألة العلاقة بين الذات والحقيقة" [4]. ولا نجد هنا من تفسير لهذه المفارقة سوى القول بأن فوكو أراد أن يحدث انقلاباً أو لنقل إنزياحاً في فهمنا لموضوع العلاقة بين الذات والحقيقة إذ صرح بهذا الخصوص قائلاً "أريد أن اتخذ نقطة بداية لهذا الموضوع –علاقة الذات بالحقيقة– مفهوماً أو تصوراً...إنه مفهوم أو تصور الاهتمام بالنفس أو العناية بالنفس"[5]. وهذا التصريح بحد ذاته عكس بشكل أو بآخر مدى حماسة فوكو ونهمه للعمل على إعادة أشكلة موضوعة العلاقة بين الذات والحقيقة انطلاقاً من عبارة (اهتم بنفسك)، مخالفاً بذلك مجمل التراث الفلسفي الغربي الذي منح الأفضلية والأولوية لمبدأ (اعرف نفسك). ولكن ما الذي دفع فوكو إلى هذا الإنزياح من المعرفة إلى الإتيك فيما يخص علاقة الذات بالحقيقة؟

حقيقة أن فوكو لا يسعى من خلال فلسفته لتقديم شيء جديد، بل يحاول جاهداً تسليط الضوء على اللامرئي أو اللامفكر فيه، إذ أن هناك الكثير من الأمور التي لا نفكر فيها ولا نراها رغم أنها مرئية، ولعل مرد ذلك هو خطل

(1) فوكو، ميشيل، هم الحقيقة، مصدر سابق، ص97.

(2) فوكو، ميشيل، تأويل الذات، مصدر سابق، ص13.

(3) المصدر السابق، ص14.

(4) المصدر السابق، ص10–11.

(5) المصدر السابق، ص10.

في الرؤية، وكما يقول المفكر الماركسي ألتوسير* "إن خطل الرؤية هو عدم رؤية ما يُرى" [1]. ما فعله فوكو بخصوص علاقة الذات بالحقيقة هو أنه رأى مالم يره الأخرون، رأى أن تحديد المعرفة كسبيل أوحد لبلوغ الحقيقة مثلما فعل ديكارت أدى إلى استبعاد وإقصاء المبدأ الإتيكي من حقل التفكير الفلسفي. ذلك أن ديكارت، حين رام إعادة إحياء عبارة سقراط (أعرف نفسك) تناسى أو تجاهل علاقة الذات بذاتها. ولنا أن نتساءل هنا ما الضير في إقصاء الإتيك أو علاقة الذات بذاتها من حقل التفكير الفلسفي فيما يخص عملية النفاذ إلى الحقيقة، وإعطاء المعرفة الأفضلية لتنفيذ هذه العملية؟

إن إقصاء المطلب الإتيكي يعني ببساطة إنصراف الذات عن الإهتمام بذاتها وإهمالها لها، وعجزها عن قيادتها والتحكم بها ليناط أمر ذلك إلى قوى خارجة عنها، وبعبارة أخرى يمكن القول إن إقصاء الإتيك هو نقل السلطة والقيادة من الداخل (الذات) إلى الخارج (الأنساق الأبستيمية)، وهذا بدوره يفقد الذات حريتها في قيادة نفسها والتحكم بها، لتغدو ذاتاً مستلبة الفاعلية والإرادة، ومن هنا بالذات تأتي أهمية دعوة فوكو إلى إعادة دراسة العلاقة بين الذات والحقيقة انطلاقاً من المطلب الإتيكي.

إذن، ليست المعرفة، بل الإتيك أو لنقل الاهتمام بالذات هو اللحظة الحاسمة والمقررة في عملية بلوغ الذات للحقيقة، لأن الاهتمام بالذات كما يقول فوكو "يتضمن قلب وتغيير النظرة، تغييرها من الخارج، إلى الداخل" [2]، هذا يعني أن الاهتمام بالذات والإلتفات إليها يدفعها إلى نقل مركز السلطة من الخارج (الأنساق الأبستيمية) إلى الداخل (الذات)، وبحسب تعبير المفكر الفرنسي جيل دلوز* تعمل الذات من خلال علاقتها بذاتها على طي وثني السلطة الممارسة عليها من الخارج لترجعها إلى ذاتها[3]، الأمر الذي يسهم في إعادة خلق وتجديد الذات لذاتها، بالإضافة إلى العمل على التحكم بها وحسن قيادتها، فضلاً عن القدرة على امتلاك زمام أمرها، وهذا يعني بالوقت ذاته تحررها من مجمل الإكراهات والممارسات والسلوكيات التي كانت تُفرض عليها، فلا تعود الذات والحالة هذه تتلقى أوامرها مما هو خارج عنها، لتغدو هي الآمر والمأمور.

نفهم من هذا أن الإتيك هو العتاد الذي ينبغي على الذات التسلح به إذا ما رغبت في المقاومة لنيل حريتها و"التفلت من ضغوط االسلطات الخارجية المحددة لسلوكيتها" [4]. ولعل هذا ما جعل فوكو يصرح في إحدى المحاورات التي أُجريت معه قائلاً: "اهتم بنفسك، تعنى: أصنع حريتك، من خلال التحكم بذاتك" [5].

*** لويس ألتوسير (1918–1990) فيلسوف ماركسي ، ولد في الجزائر، ودرس في مدرسة الأساتذة العليا في باريس، وقد أصبح فيما بعد أستاذاً للفلسفة فيها. ويعتبر أحد أهم المنظرين الماركسيين في القرن العشرين، وضع مجموعة مؤلفات منها: قراءة رأس المال، تأهيل إلى الفلسفة للذين ليسوا بفلاسفة.**

(1) ألتوسر، لويس، قراءة رأس المال، ج1، ترجمة تيسير شيخ الأرض، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1972، ص21.

(2) فوكو، ميشيل، تأويل الذات، مصدر سابق، ص20.

*** جيل دولوز: مفكر فرنسي ولد في عام 1925، التحق بالليسيه كارنو في باريس ثم درس الفلسفة في جامعة السوربون بين 1944–1984، بعد حصوله على شهادة التأهيل في الفلسفة عام 1948 انكب على دراسة وتأويل وتقديم فلاسفة كبار، أمثال كانط وهيوم وفوكو ونيتشه وآخرين. بدأ رحلته الفكرية كمؤرخ للفلسفة، ثم انصرف إلى التأليف، من أهم كتبه وأضخمها "التكرار والاختلاف"، أضافة إلى كتب أخرى مثل "ما هي الفلسفة؟".**

(3) دلوز، جيل، المعرفة والسلطة، مدخل لقراءة فوكو، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1987، ص 109.

(4) فوكو، ميشيل، إرادة المعرفة، تاريخ الجنسانية، ترجمة مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990، ص8.

(5) *Ibid*, p. 769.

ولكن السؤال الذي يقفز إلى الذهن في هذا المقام هل كان يطمح فوكو من بين ما طمح إليه –حين منح المطلب الإتيكي السبق لوصول الذات إلى الحقيقة– إلى إقصاء المطلب المعرفي ونفي أي دور له في ميدان الحقيقة؟

لقد أساء ديكارت – فيما يعتقد فوكو– تأويل واستخدام العبارة السقراطية المتعلقة بمعرفة الإنسان لذاته حين قصر عملية بلوغ الذات للحقيقة على فعل المعرفة منتزعاً تلك العبارة من السياق الذي وضعها قائلها فيه. فديكارت تجاهل أن العبارة السقراطية المتعلقة بمعرفة النفس ينبغي أن تُقرأ وتؤول في إطار عبارة أعم منها هي الاهتمام بالنفس، إذ أن مسألة "الاهتمام بالنفس تشكل فعلاً الإطار والأرضية والأساس الذي منه تجد صيغة الأمر اعرف نفسك مسوغها"[(1)]. ويمثل هذا برأينا إشارة واضحة وجلية، لا لبس فيها إلى أن فوكو لم يكن همه استبعاد المعرفة من حقل التفكير الفلسفي، زد على ذلك بعض التصريحات التي أدلى بها في بعض المحاورات التي أُجريت معه، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر تصريحه القائل "لايمكن أن نهتم بذواتنا من غير المعرفة" [(2)] وهذا أيضاً بمثابة دليل آخر على أنه لم ينف دور المعرفة من ميدان الحقيقة، فهو لم يقل إن بلوغ الحقيقة عبر الشرط المعرفي غير متاح مطلقاً، بل أعلن صراحةً أن الشرط المعرفي وحده غير كاف لهذا الغرض. لأن المعارف التي تنتج في ظل إهمال الذات لنفسها وسيطرة الأنساق الأبستيمية عليها هي ليس من إنتاج الذات كما ظن ديكارت واتباعه، بل هي مفروضة عليها فرضاً، ولذلك ينغي استحضار الإتيك لتحرير الذات حتى يكون بمقدورها القيام بعملية إنتاج المعارف دون أية ضغوط أو إملاءات من خارجها.

إذاً فالمعرفي يلعب دوراً مهماً في وصول الذات إلى حقيقتها، لكنه ليس بالدور المقرر أو المؤسس، كون الإهتمام بالنفس هو الأساس الذي ترتد إليه المعرفة. وعلى ذلك يمكن القول إن ما يروم إليه فوكو ليس إقصاء المعرفة من حقل التفكير الفلسفي المحموم بالبحث عن الحقيقة، بل التنويه إلى أن الذات إذا ما أرادت بلوغ الحقيقة ينبغي لها ألا تقف عند تخوم المعرفة فقط، بل عليها أن تسير خطوة أبعد من ذلك وهي الأخذ بمبدأ الإتيك. ومن هنا كان لزاماً على فوكو أن يقلب الأولويات فيما يخص علاقة الأبستيمي بالإتيكي، إذ يجب برأيه منح الأولوية والأفضلية للإتيكي بحيث يغدو السند الأساسي والحقيقي للمطلب المعرفي.

خاتمة:

لن ندّعي في نهاية هذا البحث بأنّنا وصلنا إلى تصور نهائي مغلق للرؤية الفوكوية إزاء علاقة الذات بالحقيقة، وفي اعتقادنا ليس مطلوب منّا تقديم تصور كهذا لأيّة قضية فلسفية نخوض فيها، على الأقل حينما نكون في حضرة فيلسوف بقامة فوكو. فمعه تبدو الأبواب مشرعة على مصرعيها، إذْ ليس هناك من حدود مرسومة ينبغي التّقيد بها أو الوقوف عندها، فهو لم يترك يقيناً إلّا وزعزعه، ولا مفهوماً إلا وقوّضه، ولا فكرة توصف بالقداسة دون أن يتساءل عن سبب هذا الوصف، إنّه منتهك الأماكن المقدسة والمحرمة بامتياز.

إنّ النص الفوكوي، نص مُلغّز لا يقول الأشياء بحرفيتها، ولا يقرّر الأمور بطريقة واضحة ومباشرة، فهو في كثير من الأحيان يتوسل التّلويح دون التّصريح، والإيهام دون الإيضاح، وهو بذلك يترك المجال رحباً أمام المتلقي للدخول معه في حوار مفتوح بغية إعادة إنتاج نصه الفلسفي بشكل متجدد.

(1) فوكو، ميشيل، تأويل الذات، مصدر سابق، ص16.

(2) *Ibid*, p. 713.

ورغم ذلك نستطيع القول أن فوكو في محاولته لمعالجة موضوعة العلاقة بين الذات والحقيقة انطلق من قضية أساسية تقرّ بوجوب المساءلة والإزاحة إذا ما أُريد الإثبات والبناء، بمعنى أنّ كل عملية بناء لابد أن تسبقها عملية نقد ومساءلة، وبالتالي فإنّ بناء وتقديم تصور جديد حول موضوعة العلاقة بين الذات والحقيقة يقتضي قبل كل شيء نقد ومساءلة مجمل الرؤى والتّصورات السابقة فيما يخص هذه الموضوعة.

وانطلاقاً من ذلك يمكن الإدعاء بأن مقاربتي فوكو إزاء علاقة الذات بالحقيقة (المقاربة الأبستيمية، والمقاربة الإتيكية) لا تنفصلان عن بعضهما، إذ أن الأولى تمهد الأرضية للحديث والانتقال إلى الثانية، في حين أن المقاربة الثانية تكمل الأولى، لأن دعوته في المقاربة الإتيكية لتحرر الذات من سلطة الأنساق الأبستيمية كيما تكون قادرة على بلوغ الحقيقة لا تستقيم ما لم يثبت أولاً أن الذات كانت خاضعة ومستلبة في مقاربته الأولى.

وفي النهاية نلاحظ أن نقد فوكو للعلاقة المعرفية بين الذات والحقيقة لم يكن بغرض إقصاء واستبعاد المعرفة من حقل التفكير الفلسفي فيما يخص علاقة الذات بالحقيقة، ولا أدل على ذلك من دعواته المتكررة بضرورة اللجوء إلى المطلب الإتيكي فضلاً عن المعرفي، والجمع بينهما بغية النفاذ إلى الحقيقة شرط أن يكون الإتيكي هو الوعاء الذي يحتوي المعرفي.

لقد أراد فوكو أن يحول عملية إنتاج المعرفة من الخارج (النسق) إلى الداخل (الذات)، وذلك عبر حث الأفراد على قيادة ذواتهم والتحكم بها، ودفعهم إلى تجريد النسق الذي يحكمهم من سلطته أو استبداله بنسق آخر عنوانه العريض هو الاهتمام بالذات، بحيث يغدو هذا الاهتمام هو الوسيلة والحافز الذي يدفع الذات كي تنتج المعرفة دون الحاجة إلى أي سند خارجي سيما وأن فوكو هو القائل لايمكن أن نهتم بذواتنا من غير المعرفة؟ وإن صح ذلك ألا يعني أن مشكلة المعرفة كانت المشكلة الأساس بالنسبة إلى فوكو؟

References:

1. Foucault, Michel, La volonté du savoir, histoire de la sexualité, traduction par Mota'a Safadi, édition le centre national du développement, Bierut, 1990.
2. Foucault, Michel, Surveiller et punir, Naissance de la prison, traduction par Ali Mokalled, édition le centre national du développement, Lebanon, 1990.
3. Foucault, Michel, Histoire de la folie a l'âge classique, traduction par Saeid Ben-krad, Le Centre Arabe de la culture, Maroc, première édition, 2006.
4. Foucault, Michel, L'herméneutique du sujet, Cours au Collège de France 1981-1982, Traduction par Al-zowawi Boghora, maison d'édition Daraltalia, Bierut, première édition, 2011.
5. Foucault, Michel, L'ordre du discours, traduction par Mohammed Sabila, maison d'édition Altanweer, 1971.
6. Foucault, Michel, le souci de la vérité, traduction par Mostafa Almensawe, éditions el-Ikhtilef, l'Algérie, première édition, 2006.
7. Foucault, Michel, Dits et écrits, (V: 4), 1954-1988, Editions Gallimard, 1994
1. Althusser, Louis, Reading of the Capital, pt.1, translated by Taisser sheikh al-ard, publications of the ministry of culture and the guidance national, Damascus, 1972.
2. Deleuze, Gilles, The knowledge and the power, introduction in Foucault's reading, translated by Salem yafout, the Center Arab Cultural, Beirut, first edition, 1987.
3. Al-dwai, Abd alrazzak, The death of the Human in the Philosophical Speech Contemporary (Heidegger, Lévi, and Michel Foucault), published by Al-Talea'a, Beirut, 2000.
4. Ibrahim, Zachariah, the problem of the structure, philosophical problems, published by Egypt, Cairo, first edition, 1990.
5. Strauss, Claude Lévi, From Near and From Far" the colds circles", translated by Mizzen M. Hamdan, published by Kana'n, Damascus, first edition, 2000.
6. Nietzsche, Friedrich, translated by Mojahed Abd El-moeen, published by Hala for Publishing and distribution, AL Giza, 2011.